24

نابلس، السامريون... وحكايا أخرى

مضى على وجودنا هنا خمسة عشر يومًا، لم يبق إلا القليل وسينتهي كل هذا، وربما للأبد. ماريان دعتنا إلى نابلس بكل لطف، تسكن هناك وتعمل مديرة للمركز الثقافي الفرنسي. إنما الدخول إلى نابلس ليس بالأمر الهيّن. الإجراءات الأمنية عند مداخلها هي الأكثر مشقة وضبطًا في الضفة الغربية. نابلس مدينة من زمن التوراة وهي اليوم مقسّمة ومقطوعة عن العالم ومنسيّة من الجميع على الرغم من هجمات لا تنقطع للجيش الإسرائيلي. نابلس الملكة المحاصرة صارت سجنًا ضخمًا يسوده غضب وخوف. تقع شمال القدس ولا تبعد عنها سوى خمسة وستين كيلومترًا، كان بإمكانها

أن تتباهى بكونها مدينة هادئة لو لم تكن أبراج المراقبة منصوبة في كل زوايا المستوطنات والقواعد العسكرية، ومصوبة فوق هذا "السجن الكبير"، كما يسميها أهلها.

نصل نابلس أخيرًا عند الصباح بسيارة ماريان الخاصة التي تحمل لوحة دبلوماسية فرنسية، بدون هذا كان من الصعب دخول المدينة. ومع هذا فهم في البدء قرروا السماح لماريان فقط بالدخول وأرادوا ردّنا على أعقابنا أنا وساري وأنيس وعلا، ثمّ إثر اتصال هاتفي مع القنصلية الفرنسية ومباحثات مع جنود الحاجز سُمح لنا، رغما عنهم، بالدخول.

ثمة حواجز ثلاثة تعترض الراغبين بالدخول لنابلس، حواراة وهو أشهرها وبيت إيبا وعزنوط. تقف أمامها طوابير المنتظرين لساعات طويلة ما يدفع المرء أحيانًا للتعبير عن غضبه، لكن ذلك يظل حدثًا عارضًا بل عارضًا جدًا فأغلب الوجوه التي أرقبها يرتسم عليها سكون قد يخيل لنا أنه نوع من استسلام وهو ليس كذلك بل أرى فيه تعبيرًا عن قوة داخلية ساكنة وهادئة تجعلهم يظهرون أمام الجنود في هيئة من يتحداهم بالقول: "لن تمنعونا من عيش حياتنا".

ها نحن أخيرًا مع طلوع النهار على مشارف المدينة، نحاذي مدينة كانت تدعى شكيم حيث، حسب التوارة، روى يسوع الناصري ظمأه من مكان عند أحد مخارجها. لكنها بدت لأعيننا المصعوقة كأنها خارجة لتوها من الجحيم مع هذه الحفرة الهائلة من كتل القطران المائع والقضبان

المعدنية... بقايا تشير إلى موتٍ مرّ من هنا، موتٌ هبط البارحة من السماء على فلسطينيين، صاروخ استهدف بحسب ماريان مسؤولين في مخيم للاجئين في بلاطة، فأمسى رُكامًا من حجر ورمل لكنه لم يكن إلا "انفجارا مُسيطرًا عليه" كما وصفه بيان اسرائيلي مقتضب.

قوات الاحتلال أغلقت المدينة العتيقة منذ أسبوع ولن نستطيع زيارتها اليوم، والأحياء الراقية تأثرت كثيرًا بقصف الإسرائيليين وتعطلت فيها أعمال الترميم والتدعيم بسبب منع تجول شبه دائم.

مائتا ألف شخص مسجونون هنا في مدينتهم، تحاصرهم حواجز هي الأشد قسوة في الضفة يعاني لعبورها الجميع حتى الشيوخ والأطفال والحوامل الموشكات على الوضع، لدرجة أن غالبية السكان كفت عن المحاولة.

ماريان تريد أخذنا إلى أعالي المدينة إلى قرية لوزة الصغيرة الهادئة المعلقة على جبل غاريزيم، لنزور عائلة تعرفها جيدًا من السامريين. للوصول إلى الجبل مركز الكون، كما يسمى هناك، والدخول إلى القرية يجب التغلب على حاجز اسرائيلي يحمي مستوطنة. يسألني ابني:

- "ولكن من هم هؤلاء السامريون؟"

وبما أني لا أدري حقًا أجيب:

- "سمعت عنهم ولكن لا أستطيع الرد عليك بعد".

مررنا أمام بقالية صغيرة في القرية، توقفنا لشراء بسكويت وليمونادة. الناس يحكون الفلسطينية هنا مثل كل مكان مع أنهم سامريون. لم ألحظ ما يميزهم عن الآخرين وأقصد الفلسطينيين، فتعلق ماريان:

– إنهم فلسطينيون ولكنهم يهود منذ الأزل. سترين!

توقفنا قرب منزل محاط بجنينة زرعت فيها نباتات وورود زاهية الألوان. يوسف يبدو فخورًا باستقبالنا وهو يشرّع لنا باب بيته. في الداخل ترحّب بنا زوجته وابناه. تأخذ الزوجة ماريان في أحضانها وتنفجر ببكاء يقطّع القلب وتحاول بين شهقة وأخرى قول شيء لها. هنا تشرع ماريان بالبكاء كذلك وسرعان ما ألحق بها أنا الأخرى مع مشاعري المتهيجة في الأصل، وأفكر أنه لابد لدى هذه المرأة المنتحبة ما يحرق قلبها. بعد دقائق أدرك السبب، خطف الإسرائيليون أحد أبنائها وهي تجهل مكانه ولا تدري في أي سجن أودع ولا إن كانت تستطيع زيارته والكلام معه. ترينا صورة هذا الفتى ذو الواحد والعشرين عامًا، تقبّله وتعابير يأس ترتسم على وجهها وتمسح زجاج صورة بللته دموعها. يتدخل يوسف الأب ويصرخ بصوت مرتجف "خلص! خلص توقفي عن البكاء". نشعر بأن انفجاره بالنحيب لن يتأخر هو الآخر. هذا ما حصل! يغطي وجهه بيديه مخفيًا دموعه ويصيح بصوت متحشرج "خلص؟ خلص!، ضاربًا كفًا بكف من وقت لوقت، كأنه يتحسّر على قلة حيلتهم مع إدراكه كربّ للعائلة بواجبه في تهدئة زوجته الملتاعة. يأمرها بالسيطرة على نفسها كي يتحكم بالوضع

المتأزم، لكنه يفشل فغياب ولده يوجعه بعمق. يسترد أنفاسه ورباطة جأشه قليلًا ويشرح لنا قصة الابن الذي كان طالبًا بالجامعة وانتسب لفصائل جبهة التحرير الشعبية الفلسطينية وأصبح مقاتلًا. لم تكن أسرته تراه في الأشهر الاخيرة إلا فيما ندر. ربما مرة أو اثنتين استطاع فيهما التحايل على أجهزة المراقبة العسكرية فمرّ ليسلّم على أمه. لكن الخبر باعتقاله هبط عليهم كالصاعقة منذ شهر ولا يدرون ما حلّ بهذا الصبي "المنيّل". كان ذهب بصحبة رفاقه عند مصور في نابلس وهو يرتدي الزي العسكري! صبيانية، تهور، الله اعلم... قفشوه هناك أولاد الكلب الصهاينة. كانت الصورة التي تحضنها الأم ولا تكفّ عن تقبيلها هي نفسها التي أُخذت عند المصور ثوان قليلة قبل توقيفهم كلهم. ملامحهم تنطق بشيء من لهو الشباب وطيشه، يبتسمون للعدسة بفرح كما لو أن الحياة كلها أمامهم. الآن اختفى ابن هذه العائلة السامرية ووقع في شباك الصيادين وترك أهله في حالة ذهول وصدمة.

– "كنت أعرف أن هذا سيحصل يومًا".

قال الأب، وتابع:

– "لم يكن عليَّ أبدًا أن أرسله للجامعة، هناك غيّروه وأثّروا عليه وعبأوا رأسه بأفكارهم. غسلوا دماغه هو الذي لطالما أحبّ الدراسة والمطالعة لدرجة كنت أخاف معها أن تدير الكتب رأسه. اليوم ها نحن محرومون من ابننا نور عيوننا ولا نعرف أين رموه! وياما من سجون

في هـذا البـلد! لابـد أنهم يسـيئون معاملته ويقسـون عليـه... الله وحـده يعلم إن كنا سنراه يومًا. أعرفهم الإسرائيليين، هؤلاء اليهود (وهو؟!!) بلا رحمة".

ثم يتوجه بحديثه نحو ماريان:

– "أنت الفرنسية، قد يمكنك معرفة مكانه والحصول على تصريح لزيارته. أوه! أتوسل إليك. تشفعي لنا. أنت تنتمين لدولة كبرى، لديكم السلطة ونحن لسنا سوى أناس بسطاء. هذا ابننا ولا نحتمل غيابه".

ثمّ يعاود النحيب كطفل، وكذلك تفعل الأم وهي تتمخط بتنورتها بصوت عال. كان الوضع أكبر من احتمالنا. يترك ساري المكان ويتوجه نحو الحديقة أما أنا وأنيس وعلا وماريان فنرتبك ونحتار ولا تصدر عنا سوى همهمات لابداء تعاطفنا. يحاول ابنهم البكر الذي أظهر انزعاجه الشديد من بكاء والديه تخفيف الأجواء، يبتلع ريقه ويعلن:

– "خلص! خلص! كفا عن البكاء كالصغار. لنقدم شيئًا لضيوفنا".

يتوجه نحونا ويسألنا بكل ثقة:

– "هل سبق وتذوقتم شاي السامريين؟ سأحضر لكم شايًا لم تتذوقوه في حياتكم!"

وما كان منه إلا أن ضرب الباب بقبضته واختفى في المطبخ.

بقى الابن الأصغر صامتًا لغاية تلك اللحظة، يقترب الآن من أمه ويحيطها بذراعيه وهو يقول:

– "لا تقلقي يا أمي، أعرف أناسًا في مناصب عليا. قريبًا سيخرج ابنك وتستطيعين ضمه بذراعيك. أعدك بهذا، أمي، أعدك وعدًا سامريًا!"

إنما الأم مغمومة لدرجة أن إخراجها من حالتها يبدو مستحيلًا. لكنها أخيرًا ترفع رأسها وتخاطبنا:

– "آه، أيها الطيبون! لا أعرف ما جرى لولدي. مالنا نحن واليهود والفلسطينيين؟ لا نريد أن تكون لنا أدنى علاقة مع هذه الحرب البشعة التي تحيطنا. نريد أن نحيا هنا على هذه الأرض، أرضنا منذ الأزل، ونعيش هنا فيما بيننا، كما عاش أسلافنا، بسكينة وطمأنينة. كم مرة قلت هذا لماجد! لكن الله يسامحه، تملأ رأسه أفكار ثورية وكلام فاضي شو ما كان... تصوروا أنه حاول اقناعي! ترونني كثورية، أنا الأم السامرية؟ أعرف أن هناك الاحتلال والقمع وأن الإسرائيليين لا يتركوننا نتحرك ويطلقون النار على كل من يرفع رأسه. لكنني أم وأريد الاحتفاظ بأولادي سالمين معافين. سينتهي الأمر يومًا، فلنطاطئ رؤوسنا الآن وسيأتي اليوم الذي نتخلص فيه من هؤلاء الجنود الأوغاد. والله، لا يعرفون من نكون! لكننا نحن السامريون، اليهود الحقيقيون. انظروا لجدران بيتنا المغطاة بكلمات كتابنا المقدس، انظروا إلى شمعداننا ذو السبعة فروع... نحن مؤمنون ونتشبث بأرضنا التي لم نتركها أبدًا. لسنا كالآخرين الذين يعودون إلى هنا ويروون شو ما كان. نحن سامريون والله يسمعنا...".

ها إن معرفتي بالسامريين تتوسع! غادرناهم ونحن نعدهم بفعل ما بوسعنا، ما يعني في الحقيقة، لا شيء على الاطلاق! أعلمني ساري بالمزيد عنهم. قوم ينحدرون من إبراهيم ويعقوب، وهؤلاء الذين يعيشون في نابلس لم يغادروا قط سفوح جبل غاريزيم وباتوا مجموعة من ثلاثمائة شخص، ضعيفة ومثيرة للشفقة ومهترئة نتيجة زواج أفرادها بعضهم من بعض. ينظر إليهم كفرع منفصل عن اليهودية، وقد جعل منهم الشقاق الذي حصل 600 سنة قبل الميلاد، منبوذين إلى درجة أن الأناجيل تضعهم على حدة، يفسر ذلك العداء الشرس الموجود بين اليهودية الأرثوذكسية والعبادة السامرية التي لا تعترف لا بالقدس ولا بالتلمود. يعتبر السامريون أنهم هم الأصليون المنحدرون من مملكة إسرائيل. كتابهم المقدس الأسفار، والمكان الوحيد الذي يعترفون بقدسيته موجود على جبل غاريزيم حيث أنزلت عليهم العقيدة. حين نطرح عليهم السؤال حول أصولهم فهم يرددون جوابًا واحدًا:

– "نحن من نابلس، وفيها كنا على الدوام".

هذه المجموعة تطالب بهويتها الفلسطينية حتى لو كانت الدولة الإسرائيلية تدّعي حمايتها وتخفف من إجراءتها القاسية معها على الحواجز، وقد وهبت أفرادها هدية ثمينة! لوحة صفراء إسرائيلية ورقم تسجيل للمركبات خاص بهم. على الرغم من هذا، ففي الساعات الحرجة والمؤلمة جعل السامريون من كفاح النابلسيين كفاحهم الخاص دون أن ينسوا اتخاذ

كافة الاحتياطات كي لا يظهروا بمظهر الخائنين أو الفدائيين. لم يكن تجاوز هذا بالأمر النادر كما تشهد قصة ماجد. في الحقيقة فإن جماعة السامريين متمركزة في منطقتين والعدد الأكبر منها موجود في نابلس فيما يقطن حوالي مائة منهم في حولون ضاحية تل أبيب.

الآن كيف بوسعنا تسكين آلام هذه الأم الثكلى وهذا الأب الذي مزقته الأوجاع؟

أنا، لا شيء بيدي بالتأكيد. أما ماريان، وعلى الرغم من تأثرها فلا شيء بمقدورها فعله من أعالي مركزها الصغير "كدبلوماسية صغيرة لا قيمة لها". كما تقول عن نفسها!

تركنا جبل غاريزيم واتجهنا نحو مركز نابلس حيث سنلتقي حماد، صديق آخر لصديقتنا العزيزة ماريان. حماد خياط ويصمم ثيابا للعرائس، أصلع، صبوح الوجه قصير القامة وبدينها. استقبلنا في ورشته بحرارة وهو يزيح بحركة خفيفة أنيقة أكوام الأقمشة والمقصات وبكرات الخيطان المتراكمة فوق طاولته الكبيرة. فرحته بقدومنا ارتسمت بجلاء على مُحياه السمح.

– آه قدمتم من عند السامريين. كلنا سامريون في نابلس، لكنهم هم السكان الأوائل! ساندونا باستمرار ووقفوا معنا ولهذا احترمناهم دائمًا حتى أن بعضهم ممثَّل في السلطة الفلسطينية، وبعضهم الآخر يعمل موظفًا، وإن كانت التجارة موهبتهم الأولى.

يصمت برهة ويعقب:

– حسنًا! لنتوقف الآن عن الحديث عنهم. سأغلق متجري وسنقوم بجولة في المدينة وما على عرائسي الجميلات سوى الانتظار أكثر!

وجدت فكرة حماد رائعة لا سيما أني كنت أشعر بحاجة لتنشق هواء منعش بعد معاناة الصباح. هكذا نتجه سوية إلى نابلس.

نصل ساحة الدوار في مركز المدينة، نجدها تغصّ برائحين وغادين وحركة لا تتوقف فيها لحشود تبدو في ظاهرها متبلدة الاحاسيس لا تنفعل لشيء، لكن يمكن لها وفي لحظة أن تتحول إلى النقيض تمامًا ويتحول سكونها الظاهري إلى غضب وتمرد. إنما هي تتراءى لنا في الوقت الحالي هادئة منشغلة ومنصرفة لمشاغلها اليومية. يصلنا برغم الضجيج صوت المؤذن وقرع أجراس الكنائس كأنها صدى لأنغامه.

تُعرف نابلس بكونها مدينة محافظة، وهو ما نتلمسه في شوارعها وعلى وجوه سكانها المنغلقة. يمشون بخطى واثقة كما لو أن مسارهم مرسوم من زمن طويل، يتبعون دروبًا معينة يعرفونها جيدًا، لا شيء يزعجهم ولا حتى الاحتلال نفسه المشرّع فوق رؤوسهم. كأنه غطاء لا مرئي من الرصاص، لا يؤثر فيهم ولا يسحقهم، كما لو كان غير موجودًا. لا يثيرون قصصه مع إنه بنظرهم قضيتهم الأساسية. قصف الجيش، الصواريخ التي تهطل، الدمار، المقاومة وهؤلاء الذين يدخلون سرًا... كلها أمور تحدث على

إيقاع خاص بهم، هم النابلسيون. إنهم على حدة، لا يشبهون أهل رام الله والقدس أو المدن الاخرى... في الحقيقة بدوا لي كالسامريين، دائمًا مع بعضهم ولكن في حيز أوسع. قد يؤكد تحليلي المتواضع لهم ما شهدته في الأمسية التي قضيناها عند عائلة عبد الباري، إحدى أكبر العائلات النابلسية.

ابن العائلة مهندس، كان فيما مضى زميلًا لساري في جامعتي دمشق وفرانكفورت. حين تناهى إليه وجودنا بنابلس، دعانا لبيت العائلة الفخم في حيّ راق من المدينة يقع مقابل جامعة النجاح، الأكثر قدمًا والأشهر في البلد. الأبّ عبد الباري طبيب وشخصية بارزة من البرجوازية القديمة، وعلى الرغم من أنه توفي من زمن ليس بالبعيد إلا أنه يظلّ مرجعًا في المدينة. تستقبلنا الأم وهي تعمل معلمة لتعليم أطفال اللاجئين مع وكالة للأمم المتحدة. كل شيء يسير على مايرام وكما يليق بالعائلة الكريمة. لكن انتبهوا! لكلّ مكانته في هذه الحياة! تخاطبني السيدة وهي تزيح جريدتها وترفع نظاراتها بأطراف أصابعها:

– نفعل ما بوسعنا لهؤلاء المساكين. محرومون من كل شيء وخاصة التعليم.

ملاحظتها تقول الكثير، هل يمكن للفارق الطبقي أن يكون أشدّ وضوحًا؟

نتناول العشاء في الحديقة حيث حُضّرت المشويات من دجاج وخضار لذيذة في فرن قديم مبني في ركن منها. ماريان مستاءة، كانت ترغب بدعوة حماد الخياط ولكن سيف عبد الباري انفجر ضاحكًا قبل أن يعترض:

– ولكن يا فرنسيتي الصغيرة، هذا النوع من الأشخاص، مع كل احترامنا لهم، لا يخطّون عتبة بيتنا. لكل موقعه في هذه الدنيا.

كان على صواب وكنا البرهان. أنا من عائلة كبيرة من غزة، ماريان فرنسية، أي أجنبية، أما ساري فصحيح أنه من مخيم للاجئين في سورية، لكن الصداقة القديمة التي تربطه بالابن عبد الباري وأهميته وعلاقاته الدولية كانت كلها أسباب "مخففة" جعلته مقبولًا في أوساطهم.

بينما حماد لم يكن سوى خياطًا صغيرًا من نابلس، هذا كل شيء! هكذا، لم تلمس ماريان الطعام وتابعت حردها ولوت بوزها حتى نهاية السهرة.